الإسلام
في بلاغة الإمام علي (ع)

حسين الحسيني القادري ـ دمشق

الحديث عن الإسلام له أهمية عظيمة خصوصاً إذا كان المتحدث عنه هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، فهذا يعطي للحديث أهمية أعظم وقيمة أكبر. ومن المعلوم أن الإمام علياً (ع) هو أول من آمن بالرسول (ص)، وأكثر من جاهد في سبيل الدعوة إلى الإسلام مع رسول الله (ص) وبعده. إنه (ع) امتداد للرسالة الإسلامية ينطق باسم الإسلام ويمثّله عملاً، وليس طالب دُنيا يتحدث في الدين، ولا متطفلاً يريد الإسلام مطية لمآرب دنيوية دنيئة. إنّه (ع) هذا الاسم المبارك الذي يحمل رمزية لتاريخ عظيم من الجهاد والعمل وفصل الخطاب ومحطات تاريخية مهمة وحاسمة في تاريخ الإسلام والإنسانية. أريد هنا استعراض ما وصف به الإمام (ع) الإسلام ببلاغته المشهود لها بالرفعة فوق كلام البشر ودون كلام الخالق.

يدور وصف الإمام (ع) للإسلام بين أسلوبي الصورة الفنية والصورة المنطقية، فبالأسلوب المنطقي يعرّف الإمام علي (ع) الإسلام تعريفاً بليغاً حيث قال: «لأنسبنَّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين واليقين هو التصديق والتصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء والأداء هو العمل»[1].

أي باختصار الإسلام يساوي العمل بمقتضاه.

وبالأسلوب الأدبي الفني انبرى الإمام علي (ع) في خطبة له يبيّن عظمة الإسلام ببيان أنه اصطفاه الله لنفسه ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ (آل عمران، آية: ٩١).

وأنزله على صفيّه وحبيبه سيدنا محمد (ص) ووكله أهل بيته (ع) وأقامه على حبه جل وعلا وحبهم (ع) فقال: «ثم إنّ هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه واصطنعه على عينه وأصفاه خيرة خلقه وأقام دعائمه على محبته».

أردف بعد ذلك ببيان عزة الإسلام وقوته وشموخه في وجه الملل الأخرى حتى هدم أركان الضلال بانتصاره وقيام ركنه، قال (ع): «أذل الأديان بعزته، ووضع الملل برفعه، وأهان أعداءه بكرامته، وخذل معاديه بنصره، وهدم أركان الضلالة بركنه».

وتلا ذلك بصور شبَّهت الإسلام وحاجة الإنسانية بالماء ومدى شدة حاجة العطشان إليه، فالإنسانية ترتوي من مياه الإسلام، أي تعاليمه

وشريعته ووصاياه الأخلاقية التي ملأت خواء الأنفس فيطلبها كل طالب للنجاة أو الحياة بسعادة فيجد عند الإسلام بغيته، قال: «وسقى من عطش من حياضه وأتأق الحياض، لمواتحه»[٢].

وبيَّن بعد ذلك بقاء الإسلام وثباته في الحياة الدنيا بعدما نزل، وهذا القول ملؤه الثقة التامة بنصر الله تعالى وإعزازه لدينه، قال (ع): «ثم جعله لا انفصام لعروته، ولا فك لحلقته، ولا انهدام لأساسه، ولا زوال لدعائمه، ولا انقلاع لشجرته، ولا انقطاع لمدته، ولا عناء لشريعته، ولا جذّ لفروعه».

والإسلام دين سمحٌ سهل المورد وليس وعراً، قال (ع): «ولا ضنك لطرقه، ولا وعوثة[٣] لسهولته، ولا سواد لوضحه، ولا عوج لانتصابه، ولا عصل في عوده، ولا وعث لفجّه».

وتتتابع الصور الفنية الجميلة خلابةً تشد الأذهان وتثير الخيال والانتباه إلى مكنونات هذه الجواهر الفنية البلاغية. قال (ع): «ولا انطفاء لمصباحه ولا مرار لحلاوته، فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها، وثبّت لها أساسها، وينابيع غُزرت عيونها ومصابيح شبّت نيرانها، ومنار اقتدى بها سفارها، وأعلام قصد بها فجاجها، ومناهل روى بها روادها».

ففي قوله (ع): «فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها» صورة بديعة شبّه فيها الحق بالتربة التي ثبت فيها الإسلام ثباتاً تاماً في لين وسهولة، دلالة على مدى ترابط الحق والإسلام بأمتن الروابط وقيامه عليه بأتم قيام.

وفي قوله: «وينابيع غُزرت عيونها» تشبيه

الإسلام بالينابيع الكثيرة العيون والغزيرة المياه، دلالة على مدى شمولية الإسلام لكل جوانب الحياة الإنسانية والطبيعية بل كل مظاهر الكون.

وفي قوله: «مصابيح شبّت نيرانها» شبّه (ع) الإسلام بمصابيح قوية في ضوئها ساطعة في نورها، دلالة على مدى اشتهار أمر الإسلام ووضوح منهاجه وسطوع طريقته لمن أراد أن يسير بهديه في الحياة.

وتلا كل ذلك بيان أهمية الإسلام وقيمته عند الله تعالى، داعياً إلى اتباعه والتشرف به، قال (ع): «فهو عند الله وثيق الأركان رفيع البنيان، منير البرهان، مضيء النيران، عزيز السلطان، مشرق المنار[٤]، معوذ المثار، فشرّفوه

واتبعوه وأدوا إليه حقه وضعوه مواضعه».

ويبيّن (ع) في خطبة له[٥] الأثر الخطر الذي ينجم من ترك الإسلام منهاجاً للحياة في سياق الحديث عنه (ص) وعن عمله في بيان الشريعة الصالحة والموعظة الشافية وبيان الأحكام المفصّلة، فيكون الخطر شديداً إذا ترك الإنسان هذه النعم في الدنيا والآخرة، قال (ع): «فمن يبتغ غير الإسلام ديناً تتحقق شقوته وتنفصم عروته وتعظم كبوته ويكن مآبه إلى الحزن الطويل والعذاب الوبيل».

وبعد أن بلّغ الرسول (ص) الإسلام إلى الناس وأدخلهم فيه كان لا بد من إمامة ومرجعية تكون بعده يعود إليها المسلمون فلا يضلّون الطريق، ويذكر (ع) في خطبة له إمامة أهل البيت (ع): «فهم حياة العلم وموت الجهل ولا يختلفون مع الحق ولا يختلفون فيه وهم بذلك دعائم الإسلام وملجأ المسلمين من الضلال وبذلك انزاح الباطل وعاد الحق إلى نصابه» فأهل البيت فهموا الإسلام ورعوه تمام الرعاية والفهم، قال (ع): «هم عيش العلم وموت الجهل يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق إلى نصابه وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل»[٦].

ونقف عند الصورة التي شبّه فيها الإمام (ع) أهل البيت (بالولائج التي يحتمي الناس بها من مطر أو برد أو توقياً من مفترس) دلالة على دعوتهم مرجعاً للخلق يعتصمون بعلمهم وهدايتهم واتباعهم من الجهل ولواحقه وعذاب الله في الآخرة[٧].

وفي خطبة أخرى يحضّ الإمام علي (ع) على التمسك بأهل البيت والرجوع إليهم وعدم التخلف عنهم، فالقرآن الكريم وأهل البيت هما الثقلان اللذان أوصى رسول الله (ص) المسلمين بالتمسك بهما حتى لا يضلوا من بعده، وذلك قبل وفاته وعند حجة الوداع على ما ورد في حديث الثقلين المتواتر حيث يعرّف الإمام علي (ع) الإسلام في سياق الحديث عن الأئمة (ع) وضرورة معرفتهم التي تدخل الجنة، وخطر إنكارهم الذي يدخل النار.

قال (ع): «إنّ الله خصّكم بالإسلام واستخلصكم له وذلك لأنه اسم سلامة وجماع كرامة، اصطفى الله تعالى منهجه وبيّن حججه، من مظاهر علم وباطن حكم، لا تفنى غرائبه ولا تنقضي عجائبه، فيه مرابع النعم ومصابيح الظلم، لا تفتح الخيرات إلا بمفاتيحه ولا تكشف الظلمات إلا بمصابيحه، قد أحمى حماه وأرعى مرعاه فيه لشفاء المستشفي وكفاية المكتفي»[٨].

---

(١) الحكمة ١٢٠ ص ٤٢٨ «نهج البلاغة» تحقيق العطاردي. منشورات المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق.

(٢) أتأق: ملأ. مواتح: جمع ماتح الذي يستسقي بالدلو والمتح: الاستسقاء.

(٣) وعوثة: الوعث رمل دقيق تغيب فيه الأقدام ومنه وعثاء السفر أي شدة التعب. الوضح: بياض الصبح والقمر ومحجة الطريق. العصل: إعوجاج في صلابة.

(٤) مشرق المنار: مرتفعه. معوذ المثار: يعجز الناس إثارته وإزعاجه قوته ومتانته.

(٥) رقمها ١٦٠ ص ١٨٧.

(٦) رقمها ٢٣٩ ص ٣٠٥.

(٧) ابن ميثم البحراني، شرح «نهج البلاغة»، المجلد الرابع ص ٣٣٣.

(٨) رقمها ١٥٢، ص: ١٧٢.